فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

٣٠ شعبان ١٣٣٦ — ١٨ الجوزاء (ر ٣) ١٢٩٦ هـ ش ٩ مايو ١٩١٨

المتفرنجون والاصلاح الاسلامي

يكثر ذكر المتفرنجين في المنار وغيره ، والتفرنج مشتق من اسم الافرنج أو الفرنجة ، وهذه الصيغة تبنى لمعان (منها) التكلف كتجلد فلان وتشجع وتخشع وتجرع الشراب اذا تكلف الجلد والشجاعة والخشوع وشرب مايكره و (منها) تحصيل الشيء بالتدريج كتعلم الحساب. وكل من هذين المعنيين ظاهر في استعمال كلمة التفرنج وما يشتق منها، فالمتفرنجون هم الذين يقلدون الافرنج فيما يستحسنون من العادات وغيرها بالتكلف أولا ثم يتوسعون في ذلك بالتدريج ، حتى انتقل بعضهم من التقليد في مشخصات الامم التي تقوى بها روابطها كالعادات في الازياء والاكل والشرب وآداب المجالس الى ما هو من مقوماتها التي تبقى ببقائها وتفنى بفنائها كاللغة والدين والشريعة وأصول الآداب والروابط الاجتماعية المنزلية والقومية

وهؤلاء المتفرنجون فريقان (أحدهما) من كان تفرنجهم أثر التعليم العصري والتربية الافرنجية التي حببت اليهم ما ألفوه وتربوا عليه من مقومات القوم ومشخصاتهم قبل أن يلقنوا ما لأمتهم من ذلك ويتربوا عليه كما يجب فكانوا كما قال الشاعر :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

(وثانيهما) من يتفرنجون تقليدا للفريق الاول من قومهم الحكام والاغنياء تقربا اليهم ، وانتظاما في سلكهم ، وتمتعا بمثل زينتهم ولذتهم، فهم مقلدة المقلدين ، بغير شبهة ولا دليل ، انما كان سبب فشو هذا التفرنج في المسلمين المدارس الافرنجية والمدارس الوطنية الرسمية وغير الرسمية، التي أنشئت لتقليد الافرنج في تربيتهم وتعليمهم بغير بصيرة ولا علم بموضع الحاجة، على حين كان العلم بمقومات الامة الاسلامية ومشخصاتها قد قل وضعف بضعفها السياسي والاجتماعي ، وما بقي منه أمسى مشوبا بما ليس منه من البدع والدخيل، وساءت طريقة تعليمه وأهملت فكرة التربية عليه بالتخلق والعمل، وقد قلت في المنار غير مرة انني لا أعرف في الدنيا مدرسة تعلم فيها اللغة العربية التعليم الفطري الذي به تكون ملكة في ألسنة المتعلمين بحيث يفهمون كلامها الفصيح في كل كتاب، ويقدرون على الاتيان به محاورة وخطابة وكتابة

بغير تكلف، كما تعلم اللغات الافرنجية في بلاد أهلها، ولا على مقربة من ذلك كما تعلم في بلادنا ؛ ولا أعرف مدرسة يعلم فيها الاسلام تعليما يفهم به كتابه وسنته وما فيهما من العقائد والاحكام والحكم والآداب فهما صحيحا يتمكن به المتعلمون من بيانه بالقول والكتابة، واثبات قضاياه والدفاع عنه بالدليل والحجة، ولا مكانا يتربى فيه النشء على أخلاقه وآدابه العالية ، وانما المدارس الاسلامية التي تدرس فيها العربية والدين معاهد تعالج فيها كتب في فنون العربية والعلوم الشرعية مما صنف بعد ضعف العلم الاستقلالي أو موته قلما يوجد فيها من وضع الأئمة المجتهدين شيء، ولكن يقرأ في بعضها قليل من كتب التفسير والحديث بقصد التبرك الذي لا يعقل معناه لا بقصد الاهتداء. وكل ما يقرأ من الكتب في مدارس البلاد العربية يفسر باللغة العامية، وفي مدارس البلاد الاعجمية (كالهند والفرس والترك) يترجم بلغاتها

في أثناء هوي الامة الاسلامية في هذه الهاوية من الجهل من عدة قرون كان الافرنج يصعدون في مراقي العلم الاستقلالي والتربية الاجتماعية على علم ونظام، يهتدون فيه بسنن الله في خلق الانسان والاكوان، وقد جعلوا لكل علم وكل فن ولكل صناعة وعمل جماعات تعنى بترقيته واتقانه، حتى إن الجمعيات الدينية فيهم تملك ألوف الالوف من النقود الذهبية . ولكن كان جل ارتقائهم في العلوم والفنون المادية والمالية والحربية وطرق استعمار الممالك واستخدام الشعوب لمنافعهم، وأقله في الفضائل الدينية والادبية التي ترجح الحق على القوة، والعقل على الشهوة، حتى خاف عاقبة ذلك عليهم حكماؤهم وعقلاؤهم، وقال أكبر وأشهر فيلسوف اجتماعي فيهم وهو هربرت سبنسر لأكبر وأشهر حكيم فينا وهو الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده — ما معناه : ان ضعف الفضيلة وتغلب الافكار المادية على أوربة ستدعّها (أي تدفعها بعنف) الى حرب مجتاحة ليظهر أي أممها الاقوى فيسود العالم .

« إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى » وانه ليبغي أن رآه قوي واستعلى ، وان مظاهر الغنى والقوة لغرارة خداعة ، فالفقراء يعظمون الاغنياء وان منعوهم رفدهم ، وهضموهم حقهم ، والضعفاء يخضعون للاقوياء وان أرهقوهم عسرا ، واستذلوهم عدوانا وظلما، ولا يزال بعض الشعوب على أثر ما من سلفهم الذين عبدوا الملوك واتخذوهم

آلهة وأربابا، وان زالت تلك الدعوى وعفت مظاهرها الباطلة، فيظهر أثر هذا الارث في كثير من أفرادها، وان تبوءوا مقاعد الرياسة فيها، وأما ولوع الامم المغلوبة على أمرها بتقليد الغالبين في كل ما يسهل التقليد فيه من العادات وشؤون الحياة، فهو سنة من أظهر سنن الاجتماع، وقد بسط الكلام فيها حكيمنا ابن خلدون في مقدمته فهي لاتخفى على قراء العربية، الذين يعنون بالامور الاجتماعية، والتقليد في الامم كالتقليد في الافراد هو توطين انفس المقلد على ان يكون تابعا للمقلد في بعض ثمرات اجتهاده، غير طامع في مساواته، فهو يستلزم تعظيمه له واحتقاره لنفسه وقومه

ان المقلد لا ينفك مرتكسا في الضعف يخبط في ليل دجوجي

قد يشتبه أمر بعض المتفرنجين بما يدعو اليه المصلحون من الاعتبار بما أوتي الافرنج من العلوم والفنون وما أتقنوه من الاعمال، والبحث في أسباب ذلك وطرقه، والاستقلال في اقتباس ما تحتاج اليه أمتهم منه، لتقوى به وتكون أمة عزيزة قوية مثل أممهم، وانما تقوى الامة اذا حافظت على ما كانت به أمة كاللغة والآداب والعادات والشرائع التي تمتاز بها، واذا كان بعض العادات باعثا ضارا فينبغي ازالته وتغييره بالحكمة والموعظة الحسنة، والتربية العملية النافعة، بشرط ان لا يشوب ذلك شيء من تحقير الامة في أنفس أهلها، ولا اذلالها باشعارها باستعلاء غيرها عليها، وان لا تحمل على تقليد أجنبي عنها، وانما تلقن الحكمة مع اقناعها بفضلها ونفعها، وبأنها يجب أن تكون أحق بها وأهلها، كما ورد في حديث أبي هريرة عند الترمذي «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها»، ومن المتفرنجين من يدعي هذا الاصلاح، ويتوهم أنه صادق لانه لا يميز بين الاصلاح والافساد، ومنهم من يدعيه بمحض الكذب والرياء، (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله ما في قلبه وهو ألد الخصام ٥ واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد)

ان الفرق بين المتفرنج المفسد وبين المصلح المستقل مما يخفى على غير العارفين بالحقائق، ومن هؤلاء العارفين لورد كرومر الذي كان عميد انكلترة في مصر، فقد بين في كتابه مصر الحديثة من فضائح المتفرنجين المصريين ما فيه أكبر عبرة لمن يعتبر منا، وان كان لم يكتبه لاجلنا، ولا نحن عرفنا كيف نستفيد منه، وقد أشار الى

مذهب المصلحين الاسلاميين فيما يستحدثون لقومهم من شؤون الحضارة بما قاله في أحد تقاريره عن مصر عند ذكر وفاة الاستاذ الامام ، وهو ان الشيخ وحزبه المعتدل يشترطون في ذلك المحافظة على أصول الاسلام، خلافاً لمن لا يبالون في هذه السبيل بالدين ولا ما دونه من مقومات الامة التي نشأوا فيها. ولا يرجى من أجنبي غير مسلم أن يقول في كلمة استطرادية أكثر من هذا في بلد له السيطرة على حكومته ، وجل من تعتمد عليهم حكومته من رجالها هم المتفرنجون كما بين ذلك اللورد نفسه في كتابه (عباس الثاني)

المتفرنجون أصناف فمنهم المعتدلون والغلاة ، ومن الغلاة المارقون من الدين الذين يحاربون أصوله وفروعه ، وينفثون سموم الكفر والفسق في أهله ، والمارقون الذين لا يحبون أن يعرف حالهم ، فلا يتكلمون في أهل الدين ولا يحبون أن يتكلم هؤلاء فيهم ، اما لاعتقادهم ان فشو الكفر مفسدة تزيد أمتهم ضعفاً وفساداً ، واما لكراهتهم للخوض في أمثال هذه المسائل وما تجره من القيل والقال، ومن المعتدلين الثابتون على عقيدتهم التي نشأوا عليها، والذين لهم ضرب من الآراء الجديدة فيها، وانما تفرنج هؤلاء في أبدانهم، لا في عقلهم ووجدانهم، ولا نحاول استقصاء ما يكون به التفرنج وأصناف أهله في أفراده بل نقول بالاجمال انه قسمان صوري ومعنوي، ظاهري وباطني، والمعنوي الباطني ، يستلزم الصوري الظاهري، وأما هذا فلا يستلزم ذلك ولكنه يؤثر فيه بعض التأثير، فكل منهما يمد الآخر في ذلك وفي غيره ويستمد منه ، لذلك نرى بين أصحاب كل قسم من التعارف والتآلف ما لا نجده بينهم وبين المخالفين لكل منهم ، فهو لذلك يسري في الامة سرياناً تدريجيا لا يشعر به الجمهور، وانما يفطن له الافراد من العارفين بشؤون الاجتماع المراقبين لسير الامم وتقلبها وما يطرأ عليها من التغيير

أما ما يشعر به الجمهور ويتألم له من بعض شذوذ الغلاة من هؤلاء المتفرنجين وجهر بعضهم في انكار ما عليه الامة من العقائد أو العادات المحترمة فمثله فيه كمثل العامي الجاهل الذي يصاب بالداء الافرنجي، يتألم لكل قرحة تعرض له من أثر الداء ويطلب لها الدواء ، ولكنه لا يعرف خطر الداء في عامة بدنه ، ولا فطنة في

تسميم دمه ، ولا يطلب له العلاج في غير أوقات التألم من الاعراض الحادثة ، ولا يصبر على تناول الادوية التي يرجى أن تنقي دمه من ذلك السم في الزمن الطويل

ترى هذا الجمهور الذي ضربنا له المثل يصيح ويشكو قولا وكتابة عند كل صوت يجهر بمخالفة دينه وآدابه وعاداته: فلان كفر ، فلان فجر، وأما العالم بشؤون الاجتماع فهو كالعالم بالطب أو بحفظ الصحة كلاهما يهتم بالعلل المادة وأسبابها والعلاج الذي يستأصلها لا بأعراضها الذي تظهر تارة وتخفى أخرى . ويا ليت الجمهور يتبع الطبيب الاجتماعي الذي يستصرخه عند كل صيحة تؤلمه من مهاجميه في عقائده أو غيرها من مقوماته الملية كما يتبع مريض البدن طبيب الابدان ، اذاً لسهل التوقي من خطر هؤلاء الذين تقطعت الاسباب وانفصمت العرى التي تربطهم بأمتهم، وتعذر عليهم الاتصال بأمة أخرى يكونون أعضاء حية فيها، ففقد جمهورهم الشعور بالحياة القومية والملية، فأمسى لا يهتم الا بلذاته الشخصية، ومنها أن يكون محترما مكرما بين من يعيش معهم، فهو يدعوهم الى أن يكونوا مثله مدعيا ان ذلك خير لهم، كما انه يكون عونا لكل ذي سلطان عليهم ، يساعده على كل ما يريده منهم ، ومن دون هذا الجمهور أفراد يعز عليهم أن لا يكون لهم أمة، فهم لشدة حاجتهم الى الامة التي انفصلوا منها في الباطن يريدون أن يجذبوها اليهم ويجعلوها أمة أخرى بمقومات ومشخصات مذبذبة لا هي اسلامية صحيحة ، ولا هي أفرنجية خالصة، ليكونوا أعضاء رئيسة لها في هذا الخلق الجديد المتخيل ، بعد ان صاروا فيها كالاعضاء الاثرية أو زوائد الاظفار والاشعار التي جرت العادة بقصها والقائها ، وهؤلاء الافراد الذين يفكرون في تكوين الامم قليلون ، ولكن الذين يلغطون بهذه الالفاظ كثيرون، ولم يظهر في متفرنجينا فرد صلح لتكوين أسرة صالحة، أو تأسيس جمعية نافعة ، فأين هم من انشاء أمة كبيرة وعادتها خلقا جديدا ؟ لأنهم بضعف الامة في نفسها، وبمساعدة القوى الغريبة لهم عليها ، ليستطيعون شيئا من الهدم دون البناء، ومن الاماتة دون الاحياء

قلنا ان جمهور المسلمين يشكو ويتألم من كل صوت يسمعه من هؤلاء الذين يدعون ارادة اصلاحه واحيائه، وانما يشكو من أعراض الداء لا من سمه وأسبابه، ونقول أيضا انه كلما سمع صوتا منكرا من تلك الاصوات ، يفزع الى من يثق بهم،

من العلماء والكتاب : انصروا الدين ، ردوا على الملحدين ، ويقنعه كل ما يقال ويكتب بعنوان الرد ، وإن كان من قبيل الطعن والسب

وقد سمعنا في هذه الأيام صوتا من هذه الأصوات ، ولا حاجة للحرب وما اقتضته من الرد على المطبوعات ، فكان خير ما نشكو منه ، أضعف ما عهد في مثله ، ذلك صوت رجل من أعضاء النيابة ، ألقى على جمهور عظيم من رجال القضاء بأسلوب الخطابة ، ثم طبع في رسالة ووزع على الناس كافة ، موضوعه وضع قواعد الإصلاح لقانون الأحوال الشخصية المقرر بنصوص الشريعة الإسلامية ، وقد رغب إلينا بعض الفضلاء في انتقاده ، ولكن في موضوع ذلك مجرد اطلاعنا عليه ، ورأينا ما تكلم في أكثر ... كلام ... شرعي ، ولا نقول في شخص وضعه شيئا ، فإن الغرض بيان الحق في نفسه ، ومن عرف الحق عرف أهله ، وموعدنا الجزء الآتي إن شاء الله تعالى

نقد ذكرى المولد النبوي

لصاحب الامضاء الرمزي

(الموضع الاول) في صفحة (ه ي من المقدمة حققتم أن عمل المولد بالشكل المعروف بدعة وانكم تتحاشون عن عمل شيء باسم المولد فأحسنتم وأجدتم . ثم ذكرتم أن البكري دعاكم فتوسلتم بإجابة الدعوة الى تنفيذ فكرة استبدال الضار من الموالد بالنافع — فهل هذه الفكرة غيرت حكم هذه البدعة وأخرجتكم من المحدثين ؟ لا أظن ذلك بل لا أرى وضع المولد يليق بأمثالكم — القائمين بالاصلاح ومحاربة البدع وخصوصا على الصورة التي طبع عليها مختوما كل فصل منه بالصلاة البتراء فلو اكتفيتم بنشره في المنار مع الارشاد الى جعل تلاوته بصورة الخطابة لربما كان أنسب ، وعن الصورة المألوفة أبعد

(الموضع الثاني) في أول الصفحة الرابعة من ذكرى المولد ذكرتم ما نصه : كيف

*) في الاصل صاحفة في كل موضع من الرسالة فابدلت في المطبعة بصفحة